المجلس العلمي

المحاضرة الثامنة (08)
التجارة في المغرب في الفترة السعدية

عناصر المحاضرة:

- تمهيد
- النشاط التجاري
- استراتيجية السعديين في مجال التجارة
- المبادلات التجارية
- طبيعة المبدلات التجارية وأهم المراكز
- العوائد المالية للدولة السعدية
- خاتمة

تقديم:

عرفت التجارة بالمغرب الأقصى نشاطا واسعا بفضل مجموعة من العوامل كالأمن والاستقرار، ازدهار الصناعات، تنوع المحاصيل، انتشار الأسواق اليومية والأسبوعية والموسمية، إضافة إلى العامل الديموغرافي (العدد+ التوزيع) وكثرة المدن ساعدت على تنشيط التجارة.

1-النشاط التجاري: ويمكن تقسيم التجارة إلى قسمين:

أ- **داخلية:** تطورت وانتشرت بمختلف المناطق نظرا لكثرة المدن والبوادي من خلال تزايد القيساريات والفنادق والحوانيت والأسواق الأسبوعية واليومية مثل: سوق السبت، سوق كرط "يومي"، سوق ولاد منصور والموسمية مثل: سوق النخيلة، سوق الخميس. كما يمكن تقسيم الأسواق إلى أسواق يومية وأخرى موسمية مؤقتة[1] ، وحتى أسواق العسكر التي تصاحب الجيوش. وقد تنسب الأسواق إلى أماكن إقامتها في أبواب المدن والأحياء أو إلى القبيلة أو للقائم عليها...

كما ساهمت عوامل أخرى في الرخاء التجاري الداخلي منها الاستقرار والامن ومساهمة التجارة السودانية بعد حملة المنصور الذهبي وضرب العملة بمختلف معادنها وموازينها في عدة مدن مغربية، وكان لتداعيات حذف الحواجز الجمركية الداخلية أو ما ينعت بالمكوس في نمو هذا النوع من التجارة[2].

ب- **خارجية:** عرفت رواجا من خلال تنوع الموانئ ووفرة المراسي، وقدوم الأوربيين، وجود الجاليات اليهودية والأندلسية، والأمن والاستقرار، وجود الوكالات التجارية، وسياسة المخزن وحاجتها للأسلحة والذخيرة ومشاريع التنمية، وانخفاض الرسوم الجمركية وتوقيع الاتفاقيات التجارية (دوق توسكانيا-إيطاليا) لبناء قصر البديع"،

[1]- ينظر على التوالي: محمد مزين، فاس وباديتها – مساهمة في تاريخ المغرب السعدي 1637/1549، ط1، ج2، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط 1986، ص 495؛ مارمول، المصدر السابق، ص69؛

[2]- ابن القاضي المكناسي، المنتقى المأثور...، ص ص 827، 828.

إضافة إلى تزايد حاجيات المغرب لبعض المواد نتيجة التزايد الديموغرافي. أما الشركات التجارية التي حصلت على امتيازات تجارية في المغرب فهناك شركة إليزابيث، أو الشركة البربرية[1]...

2-استراتيجية السعديين في مجال التجارة:

اهتم السعديون بالتجارة الداخلية والخارجية اهتماما كبيرا فعملوا على توفير الشروط الضرورية لازدهارهما وفي مقدمتها توفير الأمن والاستقرار في الطرق والأسواق وفي الارياف والمدن وايجاد المنافذ البحرية العديدة في وجه التجارة الخارجية مع اوروبا ومع غيرها، والتحكم في محور التجارة مع بلاد السودان ومحاربتهم المنافسة الخارجية لتجارة المغرب مع هذه الأخيرة خاصة البرتغاليين الذين وصلوا إلى خليج غينيا عام 1440، واتصلوا بمصادر الذهب السوداني والعبيد والزنوج وأنشأوا عدة مراكز تجارية على المحيط الأطلسي.

لتوفير الأمن في الطرق والأسواق أقام السعديون الحاميات العديدة في المناطق الخطيرة، وتمت معاقبة قطاع الطرق. كما ظهر جهد السعديين في ايجاد المنافذ البحرية في وجه التجارة الخارجية للمغرب من خلال سعيهم المبكر الى تحرير بعض المدن على الساحل الأطلسي في سنة 1510م وفي سنة1541.[2]

أما جهودهم للتحكم في محاور التجارة مع بلاد السودان الغربي فظهرت في سعيهم ابتداء من العقد الثالث من القرن10هـ/16م الى مد نفوذهم الى واحات توات ذات الأهمية، حيث كانت تتجمع فيها القوافل التجارية الذاهبة الى بلاد السودان والآيبة منها والمتوجهة الى الجزائر وتونس والمغرب[3].

إضافة إلى حملة ودان التي قادها محمد الشيخ في سنة 1543م بعد أن نجح البرتغاليين في استمالة شيخها للتجارة معهم في مركزهم التجاري الساحلي الذي أقاموه لهذا الغرض في آرجن، ويبدو أنها كانت النواة لحملة إخضاع بلاد السودان في عهد ولده أحمد المنصور في نهاية القرن10هـ/16م والقضاء بذلك على المنافسة التي كان المغرب يعاني منها في التجارة معه.

ولكن جهود سلاطين المغرب السعديين لم تقتصر على ما تقدم ذكره من التدابير لإنعاش التجارة الداخلية والخارجية، بل أضافوا إليها تدابير أخرى منها:

-التخفيف من الرسوم على التجار المغاربة، أو الغاء بعضها تماما في عهد المنصور وتخفيض الرسوم الجمركية على التجار الأجانب بحث لا تتجاوز10 بالمائة في الواردات وأقل من ذلك عن الصادرات منه.

- المعاملة الحسنة للتجار الوافدين إلى المغرب، و الترحيب بهم، و اعطاء الأمان لهم طيلة إقامتهم فيه.

- بناء الجسور على الأنهار تسهيلا للمواصلات بين مختلف الجهات في الداخل المغرب كجسر نهر أم الربيع وغيره، والموانئ المناسبة لاستقبال السفن التجارية.

- توفير العملة النقدية خاصة في عهد السلطان أحمد المنصور حيث كان الاقبال شديدا على العملة المغربية من قبل التجار الأوروبيين الذين كانوا يهربونها على الرغم من المراقبة الشديدة المفروضة.

وبفضل كل التدابير المذكورة عرفت تجارة المغرب الداخلية بين مختلف المناطق وكذلك تجارته الخارجية مع دول عديدة انتعاشا بل ازدهارا ملحوظا في عهد السعديين ولاسيما خلا النصف الثاني من القرن10هـ/16م.

---

[1]- إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص431.

[2] - Berbrugger A., Cannes a sucres , R.A, Alger 1862, p117.

[3]- محمد خير فارس، تاريخ المغرب الحديث، منشورات جامعة دمشق، دمشق، 1982، ص4 .

تجلى ذلك في التحسن الكبير الذي شهدته بعض المراكز التجارية التي كانت على وشك الخراب والاضمحلال كمراكش أو الازدهار الذي عرفته بعض المراكز الجديدة كأغادير[1]

3-المبادلات التجارية:

عملت سلطنة المغرب السعدي على تنويع المبادلات التجارية بهدف التخلص من الاحتكار وتنويع مناطق التبادل التجاري حيث مثلت الوسيط التجاري بحكم عدة عوامل، ولعل أهم مناطق التبادل التجاري: السودان الغربي، دول الجوار كالجزائر، دول المشرق الإسلامي، وتعاملت أكثر مع دول اروبا كالجمهوريات الإيطالية وبريطانيا وفرنسا وحتى إسبانيا، وبدرجة أقل البرتغال.

مناطق التبادل التجاري:

أما أهم الدول الأوروبية التي كان المغرب يتبادل مع تجارها السلع المختلفة فهي:

-**إنجلترا ودول أوروبا** : تم ربط علاقات مباشرة مع ملوكها ابتداء من عبد الله الغالب، وكان غرض السعديين الرئيسي من اقامتهم للعلاقات مع انجلترا والدول الأوروبية الأخرى هو الحصول على ما يلزمهم من الأسلحة والمعدات الحربية. بالإضافة الى تنشيط التجارة بين البلدين في مختلف البضائع الأخرى، ولتحقيق غرضهم هذا كانوا يترددون الى ملوك إنجلترا من خلال المراسلات والسفارات التي منحت تسهيلات تجارية للإنجليز كحرية المجيء والذهاب والبيع والشراء دون قيود. والتزم بمعاملة حسنة لمن يتاجر منهم في المغرب، وضمان أمنهم وسفنهم. إلى غاية تأسيس الشركة البربرية للتجارة في سنة 1585، منحت حق احتكار التجارة الإنجليزية مع المغرب لمدة 12 سنة...[2]

تأتي فرنسا واسبانيا وايطاليا وهولندا في المقام التالي بعد انجلترا فخلال القرن10هـ/16م أبدى السعديين رغبتهم في تطوير علاقاتهم مع فرنسا، وذهب على مضيق جبل طارق، والقبول له بإقامة سوق اسبوعية فيها. وكان يقصد المغرب أيضا تجار من اسبانيا وبعض المدن الايطالية وساهم بعضهم فعلا في نقل الرخام من ايطاليا الى المغرب لبناء قصر البديع الذي شيده المنصور ليأخذوا السكر بدلا عنه[3].

و في النصف الأول من القرن 11هـ/17م أخذت هولندا تحتل أهمية متزايدة في التجارة مع المغرب و لاسيما مع الدلائيين الذين أسسوا في هذه الفترة إمارة مستقلة عن السعديين.

تجارة المغرب مع بلاد السودان: كانت تجارة المغرب مع بلاد السودان دوما أحد عوامل ازدهاره حين تكون مزدهرة كما كانت أحد عوامل ضعفه حين تضطرب أو تتدهور ، ولكن التجارة المغربية مع بلاد السودان تأثرت كثيرا في النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي بعد أن بلغت أوجها في النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي فأخذت محاور التجارة تميل من جديد نحو الشرق الى الجزائر وتونس ثم ان المنافسة الأوروبية لتجارة المغرب عن طريق البحر مع بلاد السودان قد قويت فبعد أن كان البرتغاليون هم المنافسين فقط

---

[1]- مجهول ، المصدر السابق، ص 66.

[2]- محمد استيتو ، صناعة السكر في العصر السعدي- محطة ضائعة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي المغربي، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، ع8، جامعة ابن طفيل ، القنيطرة 2008، ص 64.

[3]- الفشتالي، المصدر السابق، ص 260.

للمغرب ثم تلاهم الاسبان الذين خلفوهم في أواخر القرن10هـ/16م ثم صار كل من الفرنسيين والإنجليز والهولنديين في النصف الأول من القرن11هـ/17م منافسين له أيضا[1].

تجارة المغرب مع الجزائر: بالرجوع إلى المصادر المتوفرة يمكن القول أن التجارة بين البلدين كانت قائمة ومستمرة رغم التقلبات التي شهدتها العلاقات السياسية بين البلدين؛ ولكن تلك المصادر لا تشير الى ارتقاء العلاقات الاقتصادية الى مستوى اتفاقيات اقتصادية بين البلدين أو الى تحديد للرسوم الجمركية مثلا[2].

تجارة المغرب مع تونس والمشرق العربي: كان للمغرب في عهد السعديين تجارة أيضا مع تونس والمشرق العربي خاصة بمناسبة الحج في الغالب لبعد المسافة من جهة، ولخضوع تلك البلاد للدولة العثمانية ولتوتر العلاقات بينهما وجيرانهم الأتراك العثمانيين في الجزائر في كثير من الأحيان ومخاطر الطريق البحري خلال القرنين 16 و 17 الميلاديين.

4-طبيعة المبدلات التجارية وأهم المراكز: تنوعت المبادلات التجارية من صادرات وواردات:

- **الصادرات:** تمثلت في السكر، الذهب، الملح، التمور، الشموع، الزرابي، الثياب، البرانيس، الشاشية.
- **الواردات:** تمثلت في الذخيرة، الأخشاب، الرخام، الشاي والبن، الثياب الحريرية، التوابل.

ولعل أهم الموانئ التي كانت وجهة التجار الأجانب نجد: **أسفي، مراكش، أغادير، العرائش، تطوان، أزمور، أصيلا، الجديدة، الرباط.** بينما كانت تتم المبادلات التجارية عبر قسمين المراسي والمرافىء، إضافة إلى التجارة القوافلية ولهذه الأخيرة مسالك رئيسية ودروب ثانوية.

أهم المراكز التجارية:

و إذا ما أريد الان معرفة المراكز التجارية التي شهدت انتعاشا بفضل جهود السعديين و التي كانت مراكز للمبادرات التجارية مع مختلف جهات المغرب و مختلف الدول وجد أن أهمها هي:

مراكش: التي كانت من بين المراكز التي كاد يصيبها الخراب في مطلع القرن10هـ/16م ويعود الفضل في ازدهارها إلى اتخاذ السعديين لها عاصمة لدولتهم منذ أواخر العقد الثالث من القرن 10هـ/16م فغدت تعج بالتجار المغاربة والأجانب وبمختلف السلع[3].

تارودانت: تم اعتبارها كعاصمة للسعديين قبل مراكش، وقد كان أغلب سكانها تجارا وحرفيين، وصارت في عهد السعديين إحدى أهم المدن.

آغادير وآسفي: الساحليتان اللتان أصبحتا من المراكز التجارية التي تتم عبرها أغلب المبادلات التجارية بعد أن حررتا من الاحتلال البرتغالي في سنة 1541م.

سلا، العرائش و تطوان: في شمال المغرب التي ازداد فيها النشاط التجاري بشكل ملحوظ.

تافيلالت أو سجلماسة: التي شهدت نشاطا تجاريا متزايد الأهمية بحكم موقعها ومركزها في التجارة مع افريقيا ما وراء الصحراء.

---

[1]- محمد خير فارس، المرجع السابق، ص 70

[2]- مارمول، المصدر السابق، ص272 - الوزان، المصدر السابق، ج2، ص424 ؛ عمار بن خروف، العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب في القرن 10ه/16م ، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، 2008 ، ص83.

[3]- مارمول، المصدر السابق، ج2، ص 60.

5- العوائد المالية للدولة السعدية:

كثرت العوائد المالية للدولة السعودية خاصة في زمن المنصور ومن أهمها

1_غنائم معركة وادي المخازن؛ من الكنوز والنفائس والمعاهدات الحربية والمؤن والذخيرة؛ ومداخيل الفدية خاصة بوجود آلاف الاسرى من مختلف الاجناس الأوروبية خاصة عليتهم.

2 عائدات البلاد المفتوحة خاصة السودان.

3- استغلال المناجم خاصة مناجم الذهب والملح وغيرها من المعادن.

4- عائدات مصانع السكر

5- مداخيل كراء الحوانيت والفنادق

6- مداخيل الديوان والمكوس (30 بالمئة على الواردات و10 بالمائة على الصادرات) بينما في يتعلق بالأسواق الداخلية ربع دينار على كل حمل

7- ضريبة متعلقة بلزمة العملات أي كل ولاية معنية بضريبة معينة

8- ضرائب الشرع كالخراج والعشر على المنتوجات الفلاحية.

خلاصة:

يمكن الحكم عموما بأن النشاط التجاري للمغرب في العهد السعدي عرف نشاطا كبيرا قبل أن يدب الضعف اليها لنفس الأسباب التي أدت الى تدهور الزراعة والصناعة وذلك في غياب الاحصائيات لكل صادرات المغرب وارداته في مختلف المواد ومع مختلف الدول.